أضواء في ظلال المحنة
الكاتب : هيثم يحيى
التاريخ : 11 فبراير 2014 م
المشاهدات : 5825

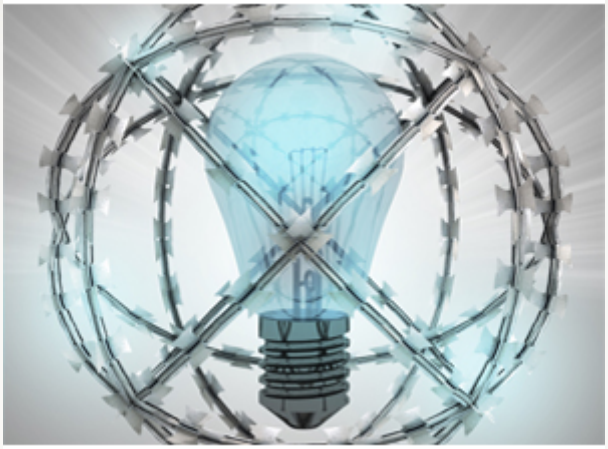

ما زلت أذكر كلمة أحد روّاد الفكر الإسلامي وهو يسرد تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة وما اعترضها من المحن، فكان يقول بعد كل محنة: (ثم تقوم الحركة من جديد فتصبح أقوى مما كانت).. ولا شك في أن المتتبّع للتاريخ المعاصر يلاحظ هذه الحقيقة واضحةً لا مراء فيها.

وهذه القوة البادية تأتي من التمحيص والصقل لصفوف الإسلاميين، فيكون الانتشار والتمكين على أسس ثابتة لا خَوَرَ فيها.

ولقد كان الجيل الأول من جموع الحركة الإسلامية المعاصرة، جيلاً كبيراً مؤثراً، (وحين جاءت الضربة عام 1948 ـ 1949، فرَّ كثير من تلك الجموع.. فر المتصوفون.. فقد عرفوا يقيناً أن هذه لم تكن جماعة صوفية، إنما كانت حركة جهادية يتعرّض أصحابها لما يتعرض له المجاهدون من قتل وتعذيب وتشريد ومطاردة، وما لهذا كانوا قد جاؤوا ولا عندهم احتمال له.. فرَّ المستنفعون.. فقد عرفوا يقيناً أن هذا القطار هو أبعد شيء عن الوصول إلى كراسي الحكم، وهم لهذا جاؤوا لا يعرفون غيره ولا يستهدفون سواه.. وفرت الجماهير.. فما عاد هناك ما يشبع وجدانهم الديني وهم لا يعرفون من الإسلام غيره، إنما هناك سجن وتعذيب وتشريد وتقتيل.. وما لهذا كانوا قد جاؤوا ولا عندهم احتمال له.. فالهرب الهرب قبل أن تعثر عليهم السلطات وتتّهمهم بأنهم كانوا هناك!

وبقي الشباب النظيف المتطهر.. ومع ذلك لم يبقَ كله.. فما كان كله يعرف من قبل عقابيل الطريق.. إنما كان يظن أنها سياحة طيبة في جو نقي بعيداً عن قذارات المجتمع الذي يعيش فيه.. أما التعرض للسجون والمعتقلات والتشريد والتعذيب فلم يكن في حسبان كثير منهم)[1].

والآن تعصف بالحركة هذه المحنة التي تكشف كل يوم كثيراً من الحقائق التي لم تكن لتظهر بهذا الوضوح إلا بمثل هذه الأحداث، فأضحت هذه الحقائق أنواراً تكشف الطريق وتعين السالكين على الوصول إلى غاية المسير، وهذه بعض الحقائق التي ظهرت من ظلال المحنة:

القوة الحقيقية:

أول حقيقة كشفتها المحنة هي قدر الإسلام في بلادنا، ولتوضيح ذلك نقول: من المعلوم أنَّ القدر الحقيقي لوجود عقيدة أو فكرة في الواقع إنما يكون انعكاساً لثبات هذه الفكرة في قلوب معتنقيها ومدى تمسكهم بها واستعدادهم لبذل نفوسهم وأموالهم وأوقاتهم من أجلها، وهذا ما نسميه (الإيمان) بما يحويه هذا المصطلح من معاني الصدق والإخلاص والثبات والوفاء وغير ذلك، وإنما تسعى الفكرة للرسوخ والثبات في واقع الناس بقدر سعيها إلى منازل اليقين في القلوب، فتظهر وتَغلِب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)، فهذه الطائفة لَمَّا كانت على الحقّ ظاهرة، ظهر الحقُّ بها، ولأنَّ كمال الظهور لا يكون إلا بكمال العزَّة، والذي ينبع من كمال الثقة بالحق، قال صلى الله عليه وسلم عن هذه الطائفة: (لا يضرهم من خذلهم)[2]، فلا يُصيب الخاذل والمخالف من نفس المؤمن شيئاً، بل لا يزيد التخذيلُ نفسَ المؤمن إلا إيماناً وتسليماً: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].

فريق الهواة:

بعض أبناء الحركة الإسلامية لا يعدو مكانه في الحقيقة أن يكون من الهواة؛ يتابع ويُحلِّل، ويتأثَّر ويناقش، وقد تكون لديه رُؤىً جيّدة للعمل، وأساليب أخَّاذة في الحوار، وفهم دقيق للأحداث؛ وكل هذا جيد، لكن أن لا يعدو مكانه هذا القَدْرَ، فهذا من فريق الهواة.. هذا الشخص لن يصنع واقعاً بالمرَّة، (فإذا كنتم ترجون معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية أن تتغلبوا في الحرب مع أولئك المفسدين في الأرض، الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة؛ فما ذلك إلا حماقة منكم)[3].

نعم، لا بد أن يكون الإنسانُ بذاته وقلبه ومشاعره وأفعاله جزءاً من الصراع، فإنَّ هذا هو أولُّ الطريق أو نقطة ما بعد الصفر، أما قبل ذلك فلا يُعَدُّ في الواقع صاحبَ قضيّةٍ أو معتنقاً لفكرة، فإنَّ صاحبَ القضية لا يتكلم إلا لتقريرها، ولا يتابع ويُحلِّل إلا لأجلها، ولا يتحرك في هذه الحياة إلا لإيجادها وتطويرها، ولا تقرَّ عينه إلا حينما يجد ثمرة جهده بناءً شامخاً مستوياً على سوقه (يُعجب الزراع ليَغيظ بهم الكفار)[4].

تحصيل سُبُلِ المغالبة:

كيف يدَّعي الإنسان أنَّه من أهل الإيمان ومن أهل النصر ثم هو لا يسعى في تحصيل سُبُلِ المغالبة والانتصار {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} [التوبة: 46]؟ وكيف يرجو ظهور الدين على يديه وأعداء الدين يبذلون في سبيل إقصائه والقضاء عليه من جهودهم وأوقاتهم وأموالهم أفضلَ وأكثرَ مما يبذل هو في سبيل إعلائه وإظهاره؟ فلا بد امتلاك أدوات المعركة لكي تكون مُحَرِّكاً للأحداث لا مُتحرِّكاً بها، وبداية هذا رصدٌ دقيقٌ للأحداث وانغماسٌ في المجتمع وهمَّةٌ عالية لا تفتر في المتابعة والتحليل، لبناء رؤيةٍ متكاملةٍ سليمةٍ توضع الخطط وفقاً لها، ثم همَّةٌ أخرى في تنفيذ هذه الخطط في نظامٍ دقيقٍ وأداءٍ مبدع، وبهذا تفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (اَلْمُؤْمِنُ اَلَّذِي يُخَالِطُ اَلنَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ اَلَّذِي لا يُخَالِطُ اَلنَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ)[5].

بلادي.. لأهل الآخرة:

إنَّه من أنهار الجنة[6]، وإنَّها قطعة من الجنة، وإنَّ أولى الناس بها أهل الآخرة؛ {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: 22].

ما خُلِقْتَ له؛ تَعرِفُهُ من استقراء الشرع والواقع، ووالله لن تستفيد من حياتك إلا أن تكون من أهل الآخرة، بل أي تردد ولو يسير في جعل نفسك من أهل الآخرة سيؤثر في مشروعك الحياتي تأثيراً لا تتخيله.. فمن البداية، أنصحك بألا تخدع نفسك؛ فإن البناء القوي الشاهق إنما يقوم على أساس أخفى وأقوى.

هل أنت من أهل الآخرة؟ من فضلك لا تتسرع في الإجابة عن هذا السؤال، وتفكَّر طويلاً في نفسك، في نظام تفكيرك، في برنامج حياتك، في أهدافك وأولوياتك، في.. ما تحب وما تكره، ما يُفرحك وما يُحزنك، في.. مشاعرك وأحاسيسك، في علاقتك

بالناس وتقييمك لهم ولمواقفهم، في قيمة نفسك عندك، ومعاني العزة والحرية والحب والتواضع والنصرة والولاء.. تأمَّل في حالِك ثم قس نفسك بأهل الآخرة.

هل أُخبرك أين تجد أهل الآخرة؟ تجدهم في كتاب الله، وأظهرُ أوصافهم أنهم أحد فريقين متفاصلين {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: 36]، {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا} [الممتحنة: 4]، أما أكثر الناس فأهل دنيا؛ فيها يفكرون، ولها يعيشون، فإذا انقضت ذهبت معها أحلامهم، وتحطمت آمالهم.

عزاء المؤمنين.. إن الله لا يصلح عمل المفسدين:

هذه عقيدة نؤمن بها إيماننا بالمحسوسات والموجودات، وانطلاقاً من هذه العقيدة تشعر بقيمة عملك الإصلاحي، وأنه باق ومؤثر رغم كل الظروف المحيطة، والله من ورائهم محيط.

والقرآن نزل لبيان هذا المنهج الإصلاحي؛ ففي أوله رد دعوى المفسدين الذين في قلوبهم مرض بأنهم مؤمنون مصلحون، وبعدها بقليل: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]، ثم يأخذ القرآن في بيان هذا المنهج بياناً واقعياً؛ حيث يرسم ملامح المواقف والشخصيات رسماً دقيقاً بالأحاسيس والمشاعر والأحداث، بل بالأعلام والرياح، والبحرين والسدين، والنجوم والشجر والدواب، ووالله لن تتعرف هذا المنهج فضلاً عن أن تعملَ به حتى تَمَسَّ حقائقُ القرآن قلبَك، وتصيرُ هي أساسَ تصوّرك للحياة.

بقي أمرٌ مهم، وهو أنَّ صدق النوايا يُعرف بعلو الهمم، فلا تتساوى نية من أتلف نفسه في سبيل دينه ومن أشبعها من لذة الظهور والشهرة.

دماءٌ واحدة:

إذا رُزِقَ الإنسان أخاً من أهل الآخرة، فالخير كله رُزِقَ، وإذا تضاعفوا فالزيادة والبركة، وإذا ازداد تضاعفهم فقد وصلوا أو أوشكوا؛ هذا بشرط أن تيأس حيَّات الفتن من اكتشاف ثغر تتسل منه، فتذبل خارج الأسوار، فتموت، ويُصَلَّى على مَن يوقظها باللعن.

نعم.. بلاد الإسلام تستحِقُّ {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا 19 كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا 20 انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 19 ـ 21].

فانظر أين تضع نفسك في هذه الحياة.. والله المستعان.

---

[1] بتصرُّف عن واقعنا المعاصر.

[2] الحديث أخرجه مسلم (1920) عن ثوبان رضي الله عنه، وفي حديث سعد رضي الله عنه : (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) أخرجه مسلم (1925)، والغرب غرب المدينة، وهو أقطار الشام ومصر وغيرها.

[3] تذكرة دعاة الإسلام ص: 44.

[4] سورة الفتح آية (29).

[5] أخرجه ابنُ ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسنادٍ حسن.

[6] أخرج البخاري (5179) عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث المعراج: (رُفِعْتُ إِلَى السِّدْرَةِ فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهَرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهَرَانِ بَاطِنَانِ، فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ)، وأخرج مسلم (2839) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ)، قال ابن العربي: وهذا تفسيرٌ لقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} [سورة المؤمنون:18]، يعني به: نهراً يجري، وعيناً تسيل، وماء راكداً في جوفها، والله أعلم. (أحكام القرآن سورة المؤمنون آية 6).

مجلة البيان

المصادر: